جامعة الحسن الثاني المحمدية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن امسيك

الدار البيضاء

عنوان المشاركة:

التواصل: مقاربة تأصيلية في الثقافة الإسلامية

إعداد الأستاذ:

د. محمد جودات

2009/11

تأسيس أولي..

يقول أنطوني روبنس(Anthony Robbin): "التواصل سلطة،والذين يتقنون استخدامها يمكنهم تغيير مفهومهم عن العالم ومفهوم العالم عنهم." [1].

وينعث روني دولاسيس René DE LASSUS أحد فروع التواصل وهو البرمجة اللغوية العصبية ب"مجال علاقة التأثير" (le domaine de la relation d'influence) ويعتبرها " أهم تحديات القرن في مجال التواصل" " سواء لتقنياتها في التأثير أو لنماذجها في الفعالية الذاتية." [2].

من وجهة معرفية أخرى فإن للغة وظيفة جوهرية Fondamentale وجدت لتحقيقها، وهي التواصل ولا شيء غير التواصل.

إن التواصل أكبر من مجرد رسم بياني يقابل المرسِل والمرسَل إليه, كما يظهر في الترسيمة التقليدية المتداولة لجاكوبسون [3] , والتي أصبحت من قبيل المثل السائر الذي لا يُعرف صاحبه. إنه **ظاهرة** [4] أوسع وأعقد من ذلك بكثير, بحيث تشمل فهم الأسباب الكامنة وراء عدم التفاهم, كما تضم تحديد عوائق التلقي غير السليم الذي يصاحبنا أحيانا في علاقاتنا مع الآخر, بهدف وضع أسس موضوعية لما

[1] René DE LASSUS ; La communication efficace par la PNL : ed / Marabout. 1992. page 5 .

[2] المرجع السابق ص 5

[3] ROMAN JACOBSON
Essais de linguistique générale. Editions De Minuit .Paris. .1963. Page 91.

[4] YOLANDE BURCHARDT
Savoir communiquer avec les autres/ Mieux se connaître pour un échange positif et réussi avec les autres. Editions De Vecchi S.A.Paris. Imprimé en Italie.1997. Page 7.

يمكن تسميته ب "**التفاهم المتبادل**". ولعل صيغة التفاعل الصرفية العربية في كلمتي التفاهم والتبادل تسعف في فهم المدلول وتجلياته [1].

إننا نعرف جميعا أناسا كثيرين يبذلون جهودا كبيرة لجب اهتمام الآخرين بهم, وهم يجهلون أنهم لن يصلوا إلى مبتغاهم بهذه العلاقة الأحادية مع المخاطب, والتي تغفل **الاهتمام المتبادل**[2], وتتناسى الاهتمام بالآخر كسِر من أسرار التفاهم المتبادل intercompréhension كما يعبر YOLANDE BURCHARDT . من هذا المنطلق فإن مدلول التفاعل (بما يحيل عليه التفاهم والتبادل...) يصبح ضميمة مصكوكة مع مفهوم التواصل الذي لا يستقيم دون فهم العلاقة الحيوية بين الذات والآخر, بين المرسل والمرسَل إليه.

دلالات بالكلمات, ودلالات خارج الكلمات...[3]:

في كثير من الأحيان يكون لدينا انطباع أنه أسيء فهمنا في وقت نعتقد فيه أننا قلنا أشياء واضحة, لن نحاول العد لأن مثل هذه الحالات كثير.

وكم من مرة اعتقدنا أننا فهمنا الآخرين دون أن نفهم قصدهم حقيقة...

إن الهوة كبيرة بين **التواصل** و**وهم التواصل**, فلماذا هذه الصعوبات.

الميكانيزم الأكثر أهمية في التواصل هو طبعا اللغة (اللسان) أو التعبير بالكلمات, أو ما يسمى اللغة الفعلية والتي سنسميها ضمن سياق اشتغالنا **سلطة اللغة**, وقد ذهب سوسير إلى اعتبار التواصل وظيفة جوهرية Fondamentale للغة, بل "لا

[1] إن هذا المدلول يستحضر بقوة معاني الصيغ الصرفية في الثقافة العربية كما يذكر بدلالات مماثلة في ثقافات أخرى مثل دلالة التقاسم في الأصل اللاتيني لكلمة التواصل كما سيأتي.

[2] استفدت من المرجع السابق مع تحويل وإضافة.

[3] المرجع السابق ص 9.

يمكن أن يكون للغة وظيفة أخرى غير الوظيفة التواصلية" [1], والوظائف الأخرى:استدلالا وإبداعا وحجاجا..., وظائف عرضية Accidentelles. لكن هناك تواصل بدون خطاب كلامي, بل بعلامات غير فعلية, إشارات, نظرات, حركات الرأس, إشارات اليدين, نبرات الصوت,... وهي كلها علامات تلعب أدوارا هامة وتبني دلالات إضافية – وأحيانا مركزية – على الرسالة الفعلية (اللسان). فمن منا لا يتذكر لحظات حميمة ويفهمها, ويتفاعل معها دون أن ينطق بكلمة, إن التواصل لا يختزل في مجرد لغة كلمات, إنه مجموع علامات ليست كلامية بالضرورة, تأتي لتقوي أو تغير ما نقول.

وهو ما يسميه هذا العمل **سلطة الشكل** ضمن تفعيل نوعي لبعض مفاهيم السيميولوجيا.

وقبل الدخول إلى كل هذه الدلالات وحمولاتها لابد من إحاطة موجزة عن المفاهيم "الكلاسيكية" و"التعليمية" أحيانا للتواصل, والتي تدرس بشكل "مشاعي" كالمثل السائر, وبدون إحالات أحيانا أخرى كالأبيات الشوارد.

لينتقل الاشتغال إلى تأصيل المفاهيم في الثقافة الإسلامية بمعنى مقاربتها والإنصات إليها دون إسقاط مفاهيم التواصل عليها, بما هي ميكانيزمات غربية.

فما أكثر النصوص التي شكلت تأسيسات جوهرية للحضارة الإسلامية, وهي حاملة ومؤصلة لمفاهيم ومدلولات تواصلية من أعلى درجات التواصل التي يتحدث عنها هذا العلم الحديث ويوضحها, لكن افتقار ثقافتنا العربية المعاصرة (ولا

[1] Oswald Ducrot et Tzvetan Todorov
Dictionnaire encyclopédique des sciences et du langage/ . Ed Seuil. coll.Points.1972.P30.

أقول الحديثة) للأدوات والمعارف الحديثة يحول دون إدراك هذه الأبعاد العميقة التي بنت حضارة كبيرة بحجم الحضارة الإسلامية.

فأبناء هذه الثقافة المشتغلون على العلوم الشرعية لا يملكون في الغالب شروطا معرفية تمكنهم من الدخول إلى مثل هذه المعارف الغربية بامتياز, والمشتغلون على هذه المناحي الغربية لا يتمكنون من دخول الثقافة الشرعية بشكل تحليلي سليم. فيضل الأول إن فعل لأنه يقود دون قواعد حديثة لآلة حديثة, ويتيه الثاني إذا لم يتفهم شروط المعرفية الخاصة بطبيعة هذه المعارف الدينية, فيكون نسخة باهتة وممسوخة للاستشراق.

التواصل واللغة/من الكلمات إلى مساحات التأويل:

"...الذات المتكلمة، قادرة ليس فقط على إنتاج وتأويل جمل نحوية، بل قادرة أيضا على إنتاج ملفوظات énoncés مرتبطة فيما بينها بشكل منسجم ومتلاحم، محترمة لبعض المواضعات والأعراف والنواميس، وخاضعة لمواقف تلفظية " [1] , من هذا المنطلق فإن اللغة عملية معقدة لا تتم عبر التعبير البسيط الرامي إلى إبلاغ ونقل المضامين إلى متلق بهدف إعمال وظيفة اللغة الأساسية المتمثلة في **التواصل بمعنى الاتصال.** إنها بهذا المعنى تتشكل بفعل ميكانيزم تكويني داخلي يراعي مجموعة متعددة من المفاعلات التي تؤسس هذا الملفوظ، بالانسجام مع أبعاد المحيط الخارجي وسياقاته لتحقيق دلالات التبادل والتفاهم المشترك المتضمنة في المصدر اللاتيني لشجرة نسب الكلمة comunicos والتي تضم معنى التقاسم

[1] T.C JUPP et autres
Apprentissage linguistique et communication. C.L.E . International, Paris, 1978 .P170.

Savoir communiquer avec les autres/ Mieux se connaître pour un échange positif et réussi avec les autres. [1] من هنا نفهم العنوان الفرعي لكتاب Partager. هو : ، فمعرفة التواصل مع الآخرين مقرونة بالمعرفة المتبادلة والذاتية بهدف تبادل إيجابي وناجح.

إن تحول الارتكاز في علوم التواصل الحديثة من تبئير دراسة المحمول إلى تبئير فهم المتلقي ينبع من هذه الدلالات السوسيوثقافية التي تراعي فهم المتلقي و"شروط إمكانه"_ استعارة من ميشيل فوكو_ لبحث ودعم إمكانية التأثير فيه. مادام التواصل عودا على بدء مجال تأثير.

من وجهة أخرى " لقد أكدت أبحاث سورل وأوستين (Searle _ Austin)، أن الوحدة الأساسية في التواصل الإنساني ليست هي المقطع أو الجملة، بل إنها فعل الكلام acte de parole ، فعندما يتكلم شخص فإنه يوظف اللغة لأمر ما، للطلب أو للبرهنة أو النداء أو التهديد... وهي مظاهر فعلية للكلام، فأن تقول إن شيئا حسن، حسب سورل، يعني أن تفعلDire c'est faire [2] ، وهذا الفعل لا يقوم على شكل اللغة وحده ولا على المظاهر الدلالية والسيكولوجية للغة. ولعل العمل المركزي الذي تتبناه البرمجة اللغوية العصبية وتسميه "تفكيرا إيجابيا"؛ هو صورة مقابلة لهذا التصور في وجه من وجوهه، كما يمكن اعتبار "تكوين" العقل الباطل وبرمجته حسب الإيجابي المطلوب سياقا تفسيريا لهذه العملية من وجهة نظر

[1] YOLANDE BURCHARDT
Savoir communiquer avec les autres/ Mieux se connaître pour un échange positif et réussi avec les autres. Editions De Vecchi S.A.Paris. Imprimé en Italie.1997.

[2] وقد عبر أوستين عن نحو هذا المعنى بقوله "من الواضح أن التلفظ بالجمل ... لا يعني أنني أصف حال قيامي بالفعل، وأنا بصدد التحدث على هذا النحو، كما لا أريد أن أثبت قيامي بذلك الفعل: بل إن النطق بالجملة هو إنجازها" (أستين :1962 ، ص 6)". نقلا عن اللغة والهوية: قومية _إثنية_دينية، تأليف جون جوزيف. ترجمة: د. عبد النور خراقي. عالم المعرفة عدد 342، الصفحة41.

البرمجة وأبعادها التحليلية. وكلها عمليات _ سواء مع سورل أو البرمجة _ توضح أهمية اللغة في التواصل والنجاح دون الدخول في التفاصيل التنظيرية.

ولقد كان شعار فلاسفة أوكسفورد " اللغة هي الاستعمال Maening is use، لأن الأمر لا يتعلق باستخدام ميكانيكي للكلمات بقدر ما يفصح عن ميكانيزمات معقدة تشمل تفعيلا ممنهجا لسياق التداول والتلقي. وهي مركزة للغة تلتقي فيها كل من المدرستين سالفة الذكر.

إن هذا الاقتناع المبدئي بتعقد ظاهرة اللغة وأهميتها في بناء الجسر الأساسي للتواصل (داخل الذات أولا مع البرمجة اللغوية العصبية)؛ وبين منتج ومتلق بهدف التواصل والتفاهم والتأثير؛ هو وحده الذي يفسر الارتكاز الأساسي الذي توليه جميع الخطابات والأيديولوجيات والحضارات والأديان وغيرها للغة وسلطتها مادامت مجال تأثير بامتياز مادام "البيان سحرا".

اللغة ميكانيزم التأثير/

من أجل تأصيل لسلطة اللغة :

هناك دلالات عديدة تعبر عنها ملفوظات بعينها، ف"كلمة الله"و"كلمة التوحيد" و"كلمة الكفر" لا تحمل المحمول الدلالي البسيط الذي يفك لغزه المعجم، وبالرغم من أن الأمر "مجرد" كلمة إلا أنه يتطلب منظومة مفاهيمية مصاحبة لتحليل وتحديد المضامين، واللغة بكونها مضمونا ثقافيا تتطلب رأسمالا تأويليا لدى المتلقي لفك شفرات النص الذي لا يحمل المعاني فقط بل يحمل الدلالات الرمزية والحقيقية والتخييلية أحيانا، لذلك "يكون النص مفتوحا حين يستطيع المؤول اكتشاف ما لا

يحصى من الترابطات." [1], فهي لاتوجد دون تفعيل معاملات أخرى مصاحبة لها ومعضدة لمركزيتها.

واللغة برغم سلطتها الرمزية "تعكس قصور الفكر: إن وجودنا في العالم ليس شيئا أخر سوى وجود قاصر عن إيجاد أي معنى متعال." [2] كما يقول إيكو.

من هذا المنطلق أيضا ترى هذه الدراسة موازاة سلطة اللغة بسلطة الشكل لمعانيها السيميولوجية التي لا تستغني عليها الدلالة.

سلطة اللغة وتوظيفها في الثقافة الإسلامية:

قال تعالى:

_"ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء"...

_"يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا".

وقال الله تعالى:

_"وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه". سورة التوبة الآية 6

إن سلطة اللغة تشكل بؤرة أساسية في بناء المفاهيم؛ إذ تمثل تجسيدا صلبا "أصل ثابت"، والقول سبب تثبيت المؤمن.

إن سياق النص الثالث يتحدث عن تقابل بين "المؤمن" ومخالف له في الملة "أحد من المشركين": بمعنى شخص ينتمي إلى ملة تشكل المقابل العقائدي وهما في حالة حرب. فبالرغم من هذه الوضعية، فإن المؤمن عليه أن يجير عدوه في الملة والحرب كي يمارس عليه سلطة أخرى أكبر من سلطة السيف وهي سلطة اللغة.

[1] أمبرتو إيكو: التأويل المفرط. ترجمة ناصر الحلواني. مركز الإنماء الحضاري، صفحة 49.

[2] المرجع السابق ص 49.

- فأجره حتى يسمع كلام الله: بمعنى من المعاني، إن ممارسة سلطة السيف تتحول_ بعد طلب الإجارة _ وتستبدل بسلطة أخرى قد تكون أعمق وأخطر من ذلك وهي سلطة اللغة.

ذلك أن ممارسة سلطة اللغة قد تُحول من جراء سلطتها من بنية ثقافية إلى بنية ثقافية وعقائدية أخرى.

فاللغة لها هته السلطة، ولذلك عندما قرئ القرآن الكريم لأول مرة في مكة بصوت ابن مسعود أخذ المشركون يصفقون عند قراءته كما جاء في قوله تعالى على لسان المشركين:"لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ". ولو لم يكن ذلك كذلك لكان ممكنا الاستماع لأي نص من النصوص ولن يكون له تأثير، غير أنه لما كان الاستماع خضوعا لسلطة الخطاب الذي قد يغير المعتقد الإنساني ويغير مصير حياته؛ في فضاء ثقافي يجعل اللغة عنوانه وهويته؛ كانت ثقافة المحو والإقصاء وحدها السلاح والمهرب [1] .

ولعل ربط عدم سماع النص ومنعه بإمكانية الغلبة إشارة معبرة، لأن حبس وحجب النص إقصاء لمعامل موضوعي دال من المواجهة، وإضعاف للعدو المفترض؛ لعل هذا الفعل يمكن من الغلبة "لعلكم **تَغلبون**".

إن منتج هذا الخطاب عارف بالامتدادات التي تؤسسها سلطة اللغة، حيث إن العرب كانوا يسمون أنفسهم عربا لأنهم يعربون عن أنفسهم، وعرب من الإعراب، وكانوا يسمون غيرهم عجما ومن صفات العجم أنهم كالبهيمة لا يعربون عن أنفسهم.

---

[1] "تحذف الرقابة المواد المخربة في الخطاب وتزيلها إلى مواقع غير مؤذية وبعيدة المنال".

الأنماط الثقافية للعنف: باربارا ويتمر. ترجمة د.ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة عدد 337، صفحة 133.

إن النصوص التي تتعرض للحذف والإقصاء والمحو تبلغ هذه الدرجة ولو كانت من إنتاج الهامش،لأن السلط المسيطرة تدرك خطورتها وقوتها الانقلابية على المركز.

ومن هذا المنطلق يدركون أهمية وخطورة اللغة، فكانوا لا يسمحون للناس بالاستماع للقرآن لمعرفتهم خطورة التأثير اللغوي على المتلقي، وكانوا يدركون أيضا تأثر الإنسان باللغة ومضامينها مما قد يؤدي إلى نتائج عكسية لما كان يريده المجتمع الجاهلي آنذاك. ويمكن إدراج عدد من النصوص في هذا الباب مثل تعقيب مندوب قريش للتفاوض مع محمد (ص) عندما رجع إلى قومه وعليه أثر التغيير الذي مارسه عليه استماعه لنص القرآن :"إن له لحلاوة وعليه لطلاوة،" وكان تعليق مرسليه أن محمدا "سحره". هذه البيئة نفسها هي التي مركزت الشاعر لأنه مصدر "الكلمة" التي ترفع القبيلة أو تضعها:

"فغض الطرف إنك من نمير" جعلت الانتماء إلى أصل ما دلالة سخرية. لهذا نفهم جزءا من احتفال القبائل بمولد شاعر.

فهذه البيئة وهذه الأجواء التي تعرف وتقدر سلطة اللغة كان الإعجاز الإسلامي مراعيا لسياقها بتفعيل سلطة اللغة أساسا إعجازيا ترجمة لبعد ثنائية المرسل والمرسل إليه في بعدها السوسيوثقافي كما أوردنا.

وكما هو معروف فالإعجاز الديني له دلالة تفسيرية في هذا المقام، فكل أمة كان إعجازها حسب سياقها.

إن الإعجاز الديني في الثقافة الإسلامية كان هو إعجاز القرآن بذاته باعتباره إعجازا لغويا بالدرجة الأولى.

موسى عليه السلام معجزته هي "عصا موسى" وهي معجزة مرتبطة بسياق المتلقي لأن المرسل إليه كان يؤمن بالسحر، فقد جاءت العصا بشيء يفوق السحر؛ وفي نفس سياقه.

وكانت معجزة عيسى متمثلة في قوله تعالى : " يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص".

فالمتلقي يبئر ويهتم بالطب بشكل كبير وجاء الإعجاز الإلهي بشيء يفوق الطب؛ وفي نفس سياقه. والعرب لما كانوا يبئرون سلطة اللغة ويسمون أنفسهم عربا جاء الإعجاز في نفس هذا السياق إعجازا لغويا، بمعنى من المعاني إن الأمر يتعلق بمعجزة لها علاقة بالمتلقي، فالمتلقي عندما يدعي أنه لا يفوقه أحد في الإعراب والبلاغة والفصاحة يجيء الإعجاز في هذا السياق إعجازا بلاغيا ونصيا وكلاميا.

ثم إن المسألة أعمق من رسالة/ خطاب يلقى إلى متلق بهدف إيصال مضامين، ففضلا عن الكفايات اللغوية المتضمنة في الخطاب (أي خطاب) والتي أطنب فيها اللسانيون والهادفة إلى إبلاغ مضامين، هناك كفايات متعددة متضمنة فيه؛ وتتحكم في الفعل التواصلي، حددتها "أوركيوني[1]. ضمن تحديدات سيكولوجية وتحليلية وكفايات ثقافية تشمل معارف المتواصلين عن العالم أو مايسميه متخصصو البرمجة اللغوية العصبية بالخريطة عن العالم، كما تدرج ضمن هذا الإطار الكفايات الإيديولوجية التي تشمل أنساق التأويل والتقويم للعالم الإحالي[2]. لذلك فاختيار نوع الإعجاز في حد ذاته استراتيجية للإقناع، وفهم للمتلقي على نحو يسمح باستثمار السياقات المرجعية/ أو الإحالية التي تتحكم فيه.

وأن يكون الإعجاز لغويا، فهذا له دلالة تواصلية ولغوية وحضارية أعمق مما نتصور، لأنه اختيار يستثمر المحمول المفاهيمي للإقناع "اللغوي والتواصلي" لدى المتلقي،ويوظف ال"رأسمال الرمزي" في الثقافة المرسل إليها أثناء، ويجعلها معاملا مصاحبا للقراءة المحتملة فيما يأتي من الأزمان؛ فقراءة النص العُلوي في الثقافة الإسلامية يستحضر النصية البلاغية العربية وشعريتها أثناء قراءته عبر الأزمان؛ ويمكن القول أنه يحفظ حضورها كضميمة لمقاربته.

---

[1] Kerbrat Orechioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage/ lib. Armand colin. paris / 1980 Marabout. 1992. page 5 .

[2] Kerbrat Orechioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage/ lib. Armand colin. paris / 1980 Marabout. 1992. page 5 .

ثم إن الإعجازات الأخرى كانت إعجازات مرتبطة بزمان ومكان؛ فتموت بموت الذين جاءوا بها أو جاءت لهم، ذلك فإعجاز موسى وعيسى دخلا في التاريخ ولكن الإعجاز اللغوي يدخل في السيرورة التاريخية باستمرار اللغة طبعا. ولذلك فإن اختيار اللغة أن تكون دلالة إعجازية ويكون الإعجاز نصا مفتوحا عبر الأزمان والأمكنة له دلالة "استراتيجية لغوية" بامتياز، كيف ذلك؟

القرآن الكريم عندما نزل في سياق المجتمع العربي، كان يستعمل الكلمات المتداولة في المجتمع العربي الجاهلي، نفس المفردات مثل أكل، شرب، ذهب.....الخ، ولما كان هذا النص نصا متعبدا بتلاوته؛ وحفظه الناس عن ظهر قلب [1] ؛ وكانوا يقرؤونه أثناء الصلاة وآناء الليل والنهار: بما هو بؤرة اهتمام ... أصبح يتمتع بسلطة اجتماعية، وأصبح موجودا ومصاحبا ومراقبا لجميع المواقف في كل مكان وفي كل لحظة، فكان من الطبيعي أن هذه التلاوة المتكررة صباح مساء تسمح بتكرار هذه الكلمات الموجودة في هذا النص حتى تصبح خالدة في الحياة اللغوية اليومية، لتشكل قناة تواصلية للتخاطب اليومي.

وأن تصير اللغة التي يتبناها النص لغة مركزية فإن لذلك دلالات سوسيوثقافية تمركز النص وتحفظ امتداداته.

لفهم هذه المسألة اللغوية نشير إلى ممارسات ضمن ما يصطلح عليه اليوم بالسياسة اللغوية، ففي الثقافة الغربية _ودون ضرب النموذج من الغرب الاستعماري حيث وضوح الظاهرة بعمق_ نلاحظ أن مفكرين عالميين من فرنسا مثلا: بورديو، فوكو، لاكان، جيل دولوز... مصرون على مخاطبة العالم بالفرنسية رغم امتدادهم الفكري

[1] هناك مصادر عديدة تتحدث عن قوة ملكة الحفظ عند العرب القدامى والنصوص "المعلقة" في صدورهم, تؤازرها دلالات أخرى في الثقافة الإسلامية تتحدث عن حفظ الحديث النبوي الشريف والعناية به وبطرق نقله، وهي كلها معاجم للذاكرة اللغوية والاستعمال اللغوي الذي يسمح باستمرار واستثمار المعجم اللغوي وصموده ضد المحو.

عبر العالم باللغة الإنجليزية، بل إن مخاطبتهم العالم المعرفي بالإنجليزية قد يوسع خارطة التلقي بالنسبة إليهم. ولكن بالرغم من ذلك فإن البعد اللغوي المرتبط بهويتهم الأصلية لا يسمح بغير هذا الوضع.

وقد تسببت محاضرة جاك دريدا باللغة الإنجليزية في أمريكا (وليس ببلد الأصلي) ردود فعل وطنية بفرنسا ووقفات احتجاجية، وكانت قضية مطروحة بإلحاح على صفحات الجرائد.

وهذا يفسر المبالغ الهائلة التي تنفقها الدول من اجل امتدادها اللغوي سواء الفرانكوفوني أو الأنجلوفوني.

وغير بعيد عن هذا التلازم الذي يجمع اللغة مع السياسة والهوية؛ كانت زيارة رئيسة الحكومة الألمانية للكيان الصهيوني السنة الماضية بهدف تقديم اعتذار عن المحرقة، وكان رد فعل اليمين الصهيوني رفض الاعتذار باللغة الألمانية معقبا:"إن اللغة التي تعتذر لنا اليوم هي التي قتلت أجدادنا" وتقدمت الرئيسة باعتذار رسمي في النازلة، ودون الدخول في تفاصيل المضمون فإن البعد اللغوي [1] استحوذ على تأويل المشهد.

---

[1] جاء في وثيقة الثورة التي تبناها الجيش الثوري في الفلبين"إن الثورة الشعبية الديمقراطية ،،، ينبغي أن ترفع منزلة اللغة الوطنية إلى أداة أساسية للتواصل في المجتمع الفيليبيني " السياسة اللغوية ص172

"يعد بيدرو أباد سانطوس مؤسس الحزب الاشتراكي الفيليبيني، وهو مثقف يروى أنه يقرأ بالألمانية والروسية والإسبانية واليونانية والطاغالوغ, وكان استعمال اللغات العامية في الخطب والتجمعات، والخطب، والسكيتشات الهزلية أحد التكتيكات الأساسية في المحاولات المبكرة التي قام بها سانطوس لتعليم العمال والفلاحين وتعبئتهم"

عن

movement for the advancement of nationalism

المرجع السابق نفسه.

يعتبر كوي أورايت Guy Wright

"أكبرمساندي إعلان الإنجليزية لغة كاليفورنيا الرسمية، ... يذهب أورايت ... إلى أن أولئك الذين يساندون التصويت المزدوج، وإجراءات أخرى تشبهه، متهمون بتقسيم الولايات المتحدة على أساس الخصوصيات العرقية، وطالب بوجوب تعلم اللغة الإنجليزية على كل من يقطن الولايات المتحدة الأمريكية، وخلد ذكرى 1984 مصادقة الناخبين في ولاية كاليفورنيا على الاقتراح 38 بموافقة71 بالمئة ومعارضة 29 بالمئة."

إن فلسفة السياسة اللغوية بكل معانيها التي فعلها الدين الخاتم راعت الأبعاد التواصلية للامتداد اللغوي الذي يحفظ للهوية "المحتملة" الدوام، فربط النص بالتداول والقراءة المتكررة لأن من معاني القرآن القراءة، فعندما تقرأ نصا كل يوم فإن الكلمات التي توجد فيه ستبقى في المعجم الذي يستعمل دائما.

فالمعجم بهذا المعنى ينقسم إلى قسمين:

- ✓ معجم الاستعمال: أي الكلمات التي نستعملها كل يوم.
- ✓ المعجم الميت: أي الكلمات المهملة.

من هذا المنطلق فإنك عندما تأخذ نصا في الشعر الجاهلي يقول فيه الشاعر "عنترة":

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أنني سمح مخالقتى إذا لم أظلم
وإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم

هذه الكلمات "ظلم"، "خيل" ... هي كلمات مستعملة في الحياة العامة، بقيت متداولة ويمكن فهمها وإن كانت تنتمي إلى زمن قديم، ولكن الكلمات التي لا تستعمل بشكل متكرر تنتقل دائما من المعجم الحي إلى المعجم الميت.

يقول الشاعر:

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

هذه الكلمات لن تفهمها و إن كنت عربيا لأنها خرجت من معجم الاستعمال ودخلت إلى المعجم الميت.

والقرآن الكريم لما كان استعماله يوميا وفي كل اللحظات للتلاوة، التعبد والمناقشة والتعلم والمحاضرات وفي جميع مناحي الحياة, كان من الطبيعي أن كلماته ستبقى متداولة في الفضاء اللغوي المستعمل.

في مقابل هذا: النصوص الدينية القديمة التي وصلتنا لا يمكن أن يفهمها إلا المتخصصون في اللغة لأنها تنتمي إلى لغة بائدة أي المعجم اللغوي الميت.

فاللغات التي كانت مصاحبة للقرآن أصبحت لغات بائدة وغير موجودة لأنها لم تحض بنفس الاهتمام والعناية والاستعمال المتكرر علما أن اللغة قد تتحول عبر الأزمان إلى لغة أخرى وتفقد علاقتها مع الأصل. وعلاقة اللاتينية مع اللغات المنتسبة إليها دليل على هذا الطرح.

إن واحدا من أسرار الإعجاز في اختيار اللغة يتمثل في تأطير الثقافة الجديدة "الإسلام" للثقافة العربية السائدة، حفظها للقرآن وممارستها للعمليات التعليمية والدينية في علاقتها مع القرآن بشكل دائم جعلت هذا النص هو معجم الاستعمال الحي الذي يمارس سلطته عبر الأزمان.

إن هذه اللغة تخطت إمكانية أن تموت بتوحدها في معجم معين، والمعجم الذي مات فيها هو معجم الشعر الجاهلي الذي لم يكن له حظ الاستعمال في اللغة الجديدة "**الحاكمة**" مع العلم أنه كان يكتب باللغة التي يتحدث بها القرآن.

ليس من قبيل الصدف أن لغة القرآن استمرت واللغات الأخرى اختفت، إن هذه المعجزة ليست اعتباطية ولكن لها علاقة بالمتلقي. فإذا كان الخطاب الإلهي ينظر إلى أهمية السياق وأهمية المتلقي وينتج خطابا يليق بالمتلقي ليفهمه_ "قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"_ فهذا يجعله خالدا ومستمرا ويمكن التواصل معه لحد الآن.

وبتطبيق البرهان بالخُلف بالنسبة للديانات السماوية الأخرى : لو وجدت النصوص الأصلية لها؛ فإنه لا توجد شروط إمكان معرفية لغوية حقيقية لقراءتها

وفهمها والتواصل معها، لان اللغة ماتت وأصحابها اندثروا واللغات التي حلت محلها صارت لغات أخرى بفعل الاقتراضات والتوليدان اللغوية حتى صارت لغات أخرى لا علاقة لها باللغات البائدة، ولو بعث موسى حيا لن يفهمه أحد لأن لغته لغة بائدة.

ومن هذا المنطلق فاللغة تولد، تنمو وتشيخ ثم تموت ، فمثلا اللغة اللاتينية الآن هي لغة مختبرية يفهمها المتخصصون ، لكنها لا يمكن أن ترقى إلى لغة يمكن التواصل بها في مجال الاستعمال اليومي.

إن العلاقة مع هذا الإعجازات أصبحت علاقة تاريخية في الديانات السماوية، بينما الإسلام اختار أن يكون الإعجاز لغويا بنص لا يتم تأويله عبر لغات أخرى لان الترجمة تخون اللغة، وبالإضافة إلى ذلك فإن تأويل النص إذا توحدت لغته ضمن سياق استعمال لغوي واحد فإن المسافة بين المتلقي والقارئ تبقى محدودة وقابلة لإعادة التأويل. وإذا وقع اختلاف في موضوع من المواضيع أو نص من النصوص في الثقافة الإسلامية فإن الأمر لا يشبه بالاختلاف في الثقافات الأخرى، لأن الاختلافات في الثقافات الأخرى هي اختلافات جوهرية بين النصوص المتناقضة فيما بينها، لأن هته النصوص تنتمي إلى ثقافات مختلفة بحكم لغاتها التي لا تتوحد في نص مركزي، وتضم معاني متناقضة بسبب الانتماءات اللغوية التي لا تنسب لجيل لغوي واحد، مما يفسر بشكل ما وقوف الباحث أمام أناجيل وليس إنجيل واحد في المسيحيات ، وأمام تعدد النصوص في يهوديات...

إن المسألة في الثقافة الإسلامية تتلخص في هذا البعد بتبني النص القرآني جملة من صور الإعجاز لكي يبقي نصا "محفوظا في السطور وفي الصدور أيضا" من ضمنها استراتيجية تواصلية تبسط نفوذ اللغة التي يقترحها القرآن. وهي

استراتيجية سمحت لهذا النص أن يبقى على مستوى الحياة ويمكن التواصل معه مباشرة للتخاطب مع البشر ومع الله أيضا بدون واسطة.

فكل مسلم يقرأ في صلاته سورة الفاتحة لقوله تعالى: " الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين". وله إمكانية التواصل مع خالقه مباشرة محوا للواسطة سواء كانت صنما أو شخصا. فالمسلم عندما يتوجه إلى القبلة ويقول كلمة "الله أكبر" ثم يبدأ في قراءة سورة الفاتحة يفتح إمكانية تواصله مع النص وخالقه (وهي قدسية لها سحرها اللغوي ولو في ذهنه على الأقل). وهي شرط يصعب تحققه في أي ثقافة من الثقافات. والنص الإلهي نص مفتوح أمام جميع الناس والعصور, واللغة التي يتحدث بها هي لغة مازالت متداولة بفعل هذا الحضور.

فالعالم العربي وإن كانت فيه لغات أخرى ليست هي اللغة العربية الفصحى ولكنه يستمد كلماته من معجم استعمال يستحضرها، والعمود اللغوي الذي يشكل كلمات اللغة الدارجة هو نفسه الذي يستعمله القرآن الكريم [1].

قال الله تعالى : "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".سورة الحجر الآية 9.

إن حفظ القرآن لا يعني فقط حفظ النص كما هو لتوارثه عبر الأجيال ولكن إمكانية حفظ التواصل معه بجعل لغته متداولة وصامدة عبر الأجيال.

قد يقول القائل إن اللغة العربية ليست هي اللغات الأجنبية في تقدمها، ليست هي الإنجليزية في انتشارها وليست هي الفرنسية في نعومتها وليست هي الإسبانية في انتشارها اللاتيني، ولكن للإجابة عن هذا السؤال أطرح مسألة بسيطة:

* إن اللغات الحية هي لغات واسعة الانتشار ولكنها تشترك في خاصية من الخاصيات وهي أنها تنتمي إلى دول عظمى، فلا توجد لغة عالمية منتشرة ودولها

[1] لقد قدمت في جزء من بحث في إطار أطروحة دكتوراه بجامعة الحسن الثاني حول علاقة اللغة العربية والأمازيغية بالمغرب وبينت حضور اللغة العربية والمعجم الإسلامي القوي في هذه اللغة إلى درجة تمثل فيه الشبكة الأساسية للاستعمال رغم المحاولات الإيديولوجية التي تحاول تجفيف هذه اللغة من العربية بالرجوع لتوظيف المعجم الميت.

دول متخلفة أو من دول العام الثالث. ولا يمكن أن نجد لغة ميتة وهي لغة دولة عظمى، حيث "إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم" كما يعبر ابن خلدون، غير أن اللغة العربية تخرق هذه القاعدة لأنها واسعة الانتشار بالرغم من أن دولها من دول العالم الثالث. فانتشارها لا يتأتى بقوة دولها ولكنه يتأتى بقوة انتشارها وبحكم أن الإسلام جعلها نصا مركزيا ولغة نصه الكبير والأساسي.

لما كانت اللغة هي الأساسية في التعبير في نص الإلهي له أهميته ونص يؤمن به ملايين البشر، من الطبيعي أن هذه اللغة بقيت منتشرة ويمكن التواصل معها وبها . عندما تنتقل إلى ثقافة دينية أخرى، يذهب الناس إلى دور العبادة أيام الأعياد ويستمعون إلى نصوص إلاهية ولكنها بلغة أصبحت كالطلاسم يقرؤها رجال دين متخصصين ويملكون مفاتيحها التأويلية؛ ويتغنون بها بطريقة كلاسيكية والمتلقي لا يعرف إلا قول كلمة آمين، وليس له أن يتسلل إلى أسرار المعاني الإلهية؛ "فالآلهة يتحدثون... عبر رسائل غامضة أو مبهمة"[1]، لأن "الرموز الغريبة فقط هي القادرة على الاحتفاظ بشذا القداسة".[2] التي لا تسمح لغير "الحكماء" بقراءة وفك رموز النصوص "الإلهية"، فيكون من الطبيعي أنهم "يتحدثون بلغة لا يمكن فهمها [1]."

[1] أمبرتو إيكو: التأويل المفرط. ترجمة ناصر الحلواني. مركز الإنماء الحضاري، صفحة 40.

[2] أمبرتو إيكو: الرجع السابق، صفحة 40.

يقول إيكو في مثل هذا الصدد: " ولكن ما كنه تلك المعرفة الغامضة التي امتلكها كهنة البرابرة؟ يقول الرأي الشائع إنهم عرفوا الوابط السرية التي تصل العالم الروحي بعالم النجوم وذلك الأخير بعالم ما تحت القمر، ...".

ويقول :" سيحاول الفكر المسيحي المنتمي للأفلاطونية المحدثة، شرح أننا لا نستطيع تعريف الإله بمصطلحات حاسمة الوضوح بسبب من العجز في لغتنا، ويقرر الفكر الهرمسي بأنه كلما كانت لغتنا أكثر غموضا ومتعددة المعاني، وأنه كلما زاد استعمالها للرموز والمجازات، كانت أكثر ملاءمة بشكل خاص لتسمية واحدية Oneness يتجلى فيها توافق المتناقضات." ص/ 41

إن مثل هذه النصوص ليست للتواصل اليومي بين الناس، لأنها نصوص تنتمي إلى فضاء ضيق وفي ظروف ضيقة مرتبطة بطقوس دينية، ومطلوب أن تبقى مغلقة لتبقى سلطة الوساطة بين رجال الدين والإله سيدة، بينما العلاقة مع النص القرآني هي علاقة مع نص مفتوح يمكن قراءته "ميسرا للذكر"، و"لا تنقضي عجائبه"، باستمرار تداول لغته ، وعدم تحوله إلى نص تاريخي يملك مفاتحه التأويل السياقي لفترة نزوله.

إن الثقافة العربية التي نزل النص القرآني فيها كانت تدرك عمق سلطة اللغة, وهناك نماذج عملية يمكن الاعتماد عليها لتوضيح دلالة سلطة اللغة:

❖ على سبيل المثال:

في إحدى المعاهدات التي كانت بين الرسول (ص) : باعتباره ممثل مؤسسة ثقافية جديدة ، و طرف آخر تشكله قريش ممثلا لثقافة عربية قديمة.

وفي معاهدة من هذا النوع كتب في رأس المعاهدة "باسم الله الرحمن الرحيم"، فاحتج الطرف الآخر أي قريش على رجل منها وقال إنه يرفض هذه الصياغة وألح أن تكون الصيغة التي تكتب بها المعاهدة أن تكون على الشكل التالي: "باسمك اللهم", وهو بهذه الطريقة يرفض سياقا له دلالة رمزية ويحل محلها صياغة أخرى كدليل على أنه يفهم عمق وخطورة الصياغة الأولى التي تعتبر اعترافا ضمنيا بما تتبناه الثقافة الجديدة بمجرد تحويل لغوي يحمل الملول نفسه مع تغيير في الصياغة.

ويمكن تفسير كثير من المواقف على هذا النحو، مثلا يرفض القرآن قول اليهود: "راعنا"، ويأمر بتدقيقها بقول "انظرنا" لسد الباب على الإحالة المفتوحة لكلمة راع وعلاقتها بالرعونة أو براع "الإله".

[1] أمبرتو إيكو: التأويل المفرط. صفحة 40.

إنه لم يكن في محض الصدفة أن تكون اللغة وجها إعجازيا في الثقافة العربية الإسلامية، والثقافة السائدة كانت تدرك أهمية اللغة وخطورتها[1]، وترفض في كثير من المواقف مجرد الانتماء لغويا إلى ملة جديدة، بمعنى أن التوحيد اللغوي كفيل بالانتماء إلى منظومة عقائدية جديدة.

وفي كثير من المشاهد القديمة في الجاهلية نكتشف أن كثيرا من الناس رفضوا الدخول إلى هذا المعتقد ولو على المستوى الشكلي وهو في حالة حرب مع الثقافة الجديدة التي تمثل الإسلام، ورفضوا هذا الدخول ولو بمجرد نطق كلمة "الشهادة" وكانوا يعرفون أن الكلمة لها أهمية، أي أنها تعبر عن الانتماء الضمني إلى مؤسسة جديدة وثقافة وبنية جديدة، وفي ذلك تخل عن مقومات ثقافية سابقة. ولذلك حتى في القرآن الكريم القول له أهمية كبرى أخطر من الفعل لقوله تعالى:" إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون" .

إن الثقافة الجديدة لها سلطة على مستوى المعتقد مختلفة مع التصور القديم ولكن لهذه السلطة تمثلات مختلفة:

- ✓ التمثل الأول: يتحدد في الدخول عبر اللغة أي الشهادة إلى منظومة جديدة.
- ✓ التمثل الثاني: يتمثل في التحول الكلي بالدخول إلى منظومة دينية وشكلية تفرض لباسا معينا وشكلا معينا في التعبد.
- ✓ التمثل الثالث: يتجسد في السياق الجديد الذي يلغي التراتبية السابقة التي بنيت في المجتمع الجاهلي.

إن الأمر يتعلق بثلاث قنوات مترابطة ومتماسكة لتأسيس تصور جديد؛ انطلاقا من تبني ميكانيزمات جديدة للتواصل، لكن التحول اللغوي الذي شعر به المتلقي وهو يعرف سلطة اللغة تمثل تحديا لغويا.

[1] نشير هنا إلى العلاقة التلازمية التي يوضحها ميشيل فوكو بين المعرفة والسلطة.

باعتباره أن الثقافة التي كانت تدعي البلاغة والفصاحة بهرت بنص جديد يضاهيها في مجال بلاغتها ويتحداها أن تأتي بعشر آيات مثله أو بسورة مثله.

إن الأمر يتعلق بالدخول في تحدي مع المنظومة البلاغية التي كانت قائمة على الشعر؛ رغم أن نص الثقافة الجديدة ليس شعرا.

ولذلك يقال إن الثقافة العربية قد أفحمت آنذاك [1] ، وتوقفت عن إنجاز الشعر لأنها صدمت بنص بلاغي مختلف بهر الناس:"إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة". ولعل تحول مركزية الشعر الذي كان ارتباطه بالهوية في هذه الثقافة القائمة آنذاك كان من النتائج الأولى لنجاح السياسة اللغوية الإسلامية الجديدة الهادفة إلى تغيير المنظومة والانقلاب عليها [2].

من هذا المنطلق يمكن القول إن اللغة معبر للتأثير في المتلقي وهي تشكل في حد ذاتها دالا جوهريا على الثقافة "كإرث مشترك من الذكريات، والعادات التاريخية المنقولة بشكل رئيسي عبر اللغة المشتركة"[3]، إنها المختبر الفعلي الذي يرصد "حقيقة أن هناك تفاعلا وثيقا بين اللغة والهوية،إلى حد يصعب فيه الفصل بينهما"[4].

---

[1] كتبت دراسات عديدة عن ضعف الشعر في صدر الإسلام، ومنها ماكان قيميا وانفعاليا يحاول محو هذا "الإدعاء" لكن مقارنة الشعر الجاهلي مع شعر صدر الإسلام توضح ضعف هذا الأخير.

[2] **"الثورة الإيرانية سنة 1978_1979 ثورة صنعتها الخطابة إلى حد ما، وعلى نحو خاص خطب الجمعة التي يلقيها رجال الدين الذين حددوا المآل فعليا وشكلوا الرأي العام. بالإضافة إلى هذا، كان الربط الشديد بين اللغة الإنجليزية وبرنامج التحديث الذي أطلقه الشاه ينبئ بأن الثورة ستكون لها عواقب لغوية."**

السياسة اللغوية: خلفياتها ومقاصدها. جيمس و.طوليفصون. ترجمة د.محمد الخطابي، تقديم عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني، ط1. 2007. ص 106.

صحيح أن الأمر هنا يتعلق بلغتين متقابلتين، لكن تجدر الإشارة أن الإسلام أيضا مركز لغة قريش التي كانت أساسا تقعيديا فيما بعد, وحول بنية اللغة على النحو الذي أطنبت فيه البلاغة العربية بنسج دلالات وأنماط بلاغية جديدة شكلت في حد ذاتها أنماطا مرجعية للتجديد حيث طلب أحد أبو تمام ريشة من "جناح الذل" عندما عيب عليه تشبيه غير ملموس.

[3] نورثروب فراي، التطور الثقافي لكندا: خطاب إلى مجلس كندا للعلوم الاجتماعية والبحوث الإنسانية "(هارت هاوس،جامعة تورونتو 18 تشرين أول 1990) ص 2.

نقلا عن "الأنماط الثقافية للعنف": باربارا ويتمر. ترجمة د.ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة عدد 337، صفحة 34.

[4] اللغة والهوية: قومية _إثنية_دينية، تأليف جون جوزيف. ترجمة: د. عبد النور خراقي. عالم المعرفة عدد 342، مقدمة المترجم الصفحة 8.

إن المرمى الدال في هذه الاستراتيجيات اللغوية يتمثل في كون اللغة لم تكن معبرا تعبيريا وناقلا للمضامين على النحو الذي تمارسه اللغة الطبيعية.

ولذلك فإن الفرق بين اللغة البشرية واللغة الطبيعية فرق شاسع وإن كانت اللغتان تلتقيان في بعض الأحيان للتعبير عن الحاجيات.

الفرق بين اللغة الطبيعية واللغة البشرية:

- ❖ اللغة الطبيعية: هي اللغة التي يتمتع بها جميع المخلوقات للتعبير مثلا عن الألم والخوف والجوع.
- ❖ اللغة البشرية: تضم تعبيرات اللغة الطبيعية غير أنها تضم لغة أخرى تتجاوز التعبير عن الحاجيات للتعبير عن الوظائف التي يحددها اللسانيون، وهي لغة يتم التوافق عليها ضمن جماعات وعشائر لغوية، وتتميز بكونها لغة فردانية أيضا، لكل شخص بصماته في نسج فضائه اللغوي كما يوضح رولان بارث في الدرجة الصفر للكتابة.

إن لكل شخص إمكانية أن يعبر بلغة خاصة عن دواخله وعن حاجاته، نأخذ مثالا على ذلك: الفرق بين الطفل الصغير الذي لم يتعلم اللغة ومخلوق آخر غير بشري هو فرق على مستوى التعبيرات. إن الطفل يعبر عن الألم، البكاء لكن بشريته تتميز عندما يبدأ في تعلم اللغة، لأن اللغة نموذج للتمثل العقلي، وفي هذه المرحلة ينفصل عن اللغة الطبيعية ويدخل إلى اللغة البشرية التي تمكنه من تعبيرات مفتوحة.

ولذلك كان من صفات الله التي أودعها في خلقه أن علمه اللغة، البيان، وكان من ضمن القضايا الأساسية التي نوقشت في الثقافة العربية هي مسالة تعلم آدم اللغة لقوله تعالى:" وعلم آدم الأسماء كلها" سورة البقرة، الآية: 31. أي منحه القدرة والكفاية لكي ينجز اللغة، أوأعطاه لغة مسبقة يقوم بتداولها، إنتاجها وإعادة إنتاجها،

جاء في المقدمة نفسها: يقول أندرسون (1991) بهذا الخصوص إن اللغة هي الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة. نفسه.

إن الأمر يتعلق بشيء يميز الإنسان عن غيره[1]. إنها هويته وماهيته والجسر الصريح إليه. من هذا المنطلق فإن تركيز الثقافة الإسلامية الجديدة على بناء ما يمكن تسميته بهوية لغوية خاصة ضمن سياق تواصلي بديل للقائم؛ كان ضمن تفعيلا لاستراتيجية تواصلية تمس أبعاد التأثير الداخلية "للأمة" التي توخت بناءها من أصغر انتماء لغوي تعبر عنه "الشهادة"؛ إلى أكبر تعبير سيميولوجي يعبر عنه الاستشهاد.

سلطة الشكل / السيميولوجي قناة للتواصل والإبلاغ:

عندما جاء الإسلام إلى الجزيرة العربية كانت هناك بنية ثقافية سائدة وسيدة مبنية على : _ العرق _ السادة _ التراتبية ...

فجاء الإسلام مشروعا جديدا حديثا تحوليا؛ شكل انقلابا بالنسبة للبنية القائمة باقتراح وتبني بدائل جذرية تقلب السلطة القائمة و مفاهيم الثبات و"هذا ما وجدنا عليه آباءنا".

هذا المشروع الانقلابي عنوانه المساواة والعدالة الاجتماعية: فالعرقية والسيادة والأشراف والتراتبية نقيض لا يتساكن مع مساواة "الأراذل"[2] والعامة والتواصل

[1] "ففي علم اللغة الحديث، الذي ارتبط اسمه بتشومسكي خصوصا، يقر فقط باستمراريات هزيلة جدا بين لغة الإنسان وأنظمة الاتصال عند النحل، والطيور، والدلافين، والقردة، وغيرها." وهذا طرح تضاربات نظرية،
لكننا "لو أخذنا اللغة من منظور تطوري، فسنحتاج إلى الاستفهام عن النظائر المتعلقة بالسلوك اللغوي عند كائنات حية أخرى، خصوصا تلك التي تربطها بنا علاقة وطيدة جدا. إننا ندرك، طبعا، ألا أحد من هذه الأنواع قد طور كلاما صوتيا ملفوظا بوضوح. مما أدى بلغويين كثر بمن فيهم تشومسكي ومدرسته إلى أن يجادلوا في عدم وجود أي رابط بين الإنسان وبين أي نوع آخر من الكائنات، وأن اللغة قد تفرد بها البشر، وهي تشكل (خطا فاصلا ضخما) بالمفهوم التطوري."
اللغة والهوية: قومية _إثنية_دينية، تأليف جون جوزيف. ترجمة: د. عبد النور خراقي. عالم المعرفة عدد 342، الصفحة 49.
للإشارة فإن تعلم آدم اللغة "علم آدم الأسماء كلها" و "أنبئهم بأسماء هؤلاء" كانت الهوية المميزة التي تستلزم السجود له من طرف المخلوقات الأخرى، وأول نص قرآني بأر "اقرأ" و"علم الإنسان" في الثقافة الإسلامية.

[2] "اتبعه الأرذلون" حسب التعبير القرآني.

معهم [1], واعتبارهم متساوين في الخضوع لسلطة واحدة تعدل بين الناس سواسية ولا تعطي الامتياز لجزء الرعية على حساب الآخر.

وقد صاغ الخطاب الجديد ميكانيزمات للتواصل تراعي بنية المتلقي وسياقه المفاهيمي بما يضمن "نجاح" الرسالة التي نزلت من لدن من هو "أعلم بخلقه" [2]، حيث بناء المعاني والدلالات يتم "انطلاقا من السياق الذي تحدده هوية المخاطب والمخاطب ونوع الحال situation الذي وردت فيه هذه الكلمات." [3]. ولعلم مفهوم سبب النزول ترجمة لفهم السياق التواصلي لدى المتلقي، وأخذ "قراءة الناس" الذين "نتواصل معهم" حسب تعبير جون جوزيف بعين الاعتبار. كيفما كانت أعراقهم ورتبهم الاجتماعية...، وكل ذلك عبر سلطة لغوية كما أوردنا، وعبر مشاهد سيميولوجية تضع "الأعرابي" في مشهد واحد وحوار مباشر مع "الرسول" (ص).

وقد أدرك المشركون خطورة هذه البنية التي تقلب المفاهيم، ولعل صياغات من قبيل "اتبعه الأرذلون" ... دلالة صريحة على رفض البنية الجديدة لاتباع طبقة مسحوقة لها، ولاعترافها بها.

---

[1] LUCIEN SFEZ; La communication
PUF 1991 : 2eme édition .P3 .
حيث يشير هذا المؤلف أن التواصل مطالب بفك كل المشاكل: السعادة ، والمساواة، والتفتح الفردي والجماعي، الصراعات الأيديولوجية...

[2] أحب أن أشير هنا إلى "أن اللغة تنطلق من هذا النوع العام من قابلية التأثر التزميزي والقراءة، فستتمخض تحولات في المنظور. العلاق إذ يمكن لنا_ بداية_ التفكير في أن للغة الإنسان غاية رئيسة عدا الغايتين اللتين تنتسب إليهما تقليديا، وهما غاية التواصل (وتنطلق من وجهة نظر المتكلم الذي يرغب في نقل مقصد من المقاصد إلى المستمعين) وغاية التمثل (المتصل بالكون، الذي تم تحليله إلى فئات منطقية، تحويها اللغة حسب رأي بعض الفلاسفة)، على الأقل. وقبل أي من هاتين الغايتين، واللتين تغطيهما اللغة لاعتبارات عديدة، توجد، هذه الأخيرة ضمن هذا المنظور العكسي، بهدف قراءة المتكلم."
. اللغة والهوية: قومية _إثنية_دينية، تأليف جون جوزيف. ترجمة: د. عبد النور خراقي. عالم المعرفة عدد 342، الصفحة 54.

[3] المرجع السابق. الصفحة 54.

وللتذكير فإن هذه البنية الجاهلية كانت تحتقر الآخر والمختلف الذي لايقصيه الخطاب الجديد مادام يرفع راية التواصل مع "العالمين".

هذا الإدراك لخطورة البنية القيمية الجديدة تجليه صياغات أخرى دالة:

_ ما لهذا الرسول يمشي في الأسواق ويأكل الطعام.

_ لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم

ونتيجة للخوف من خطورة الهدم المفاهيمي والقيمي يصدر التحذير الصريح والصارخ:

_ "لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون"، إذ الانتصار قد يكون بعدم الخضوع لهذه السلطة _وهي اللغة كما أوضحنا_ ومعضداتها الشكلية.

بعد ادعاء أنه مجرد جنون أوسحر أو أساطير...

وهناك مجموعة نصوص تؤكد عبر مشاهدها السيميولوجية وتعضد هذا التصور الذي جاء ترجمة لمشروع جديد مبني على قيمة المساواة والعدالة الاجتماعية، وهادما لقيم التعالي والتمايز التي كانت في مجتمع الجاهلية وغيره مادام الإسلام "للعالمين"، منها مثلا؛ المشاهد الحديثية التي يسأل فيها سائل عن محمد صلى الله عليه وسلم / من منكم محمد... [1]

بخلاف البنية التقليدية والسلطة التراتبية التي كانت تميز الزعيم والرئيس وتوفر له شكلا سيميولوجية مختلفا يعرف به.

هذه المشاهد التي نقلتها الثقافة الإسلامية وغيرها _ بطرق معرفية توضحها الرواية والدراية _ متعددة وكاشفة للطفرة التي أسست القطيعة بين بنية سلطوية

[1] في اللقاء الأول بين محمد ص والأنصار ظن الناس أن أبا بكر هو الرسول، فقام (ض) وغطى الرسول بردائه ليدلهم أن الرسول هو صاحبه, وهناك مشاهد عديدة تنقل صورة النبي (ص) مع أصحابه بشكل متساو, وقد سماهم "أصحابا" ولم يسمهم "أتباعا"، وهناك نصوص عديدة تتحدث عن ضربه صدر أعرابي والحديث مع الناس وتفهم سياقاتهم على مستوى شكلي لم تعرف الثقافة القائمة.

تبئر القبلية والسيادة وأخرى تفسح المجال لكل "أعرابي" أن يبدي رأيه ويخاطب "القمة" بين قوسين التي تتبنى "إنما أنا بشر مثلكم".

2 _ **المساواة وتجلياتها:**

المشروع الجديد الذي جاء به الإسلام هو المساواة / بين العربي والعجمي، الأبيض والأسود... /كلكم لآدم وآدم من تراب.

وهو مشروع عطل بنية القرابة والدم والقبيلة،(والإسلام غير مسؤول عن عودة هذه المفاهيم الجاهلية عن طريق إديولوجيات تبنت الإسلام)، وقد تَرجم عدم تعيين خليفة للرسول هذا التعطيل، كما تُرجم بتمثيل الإسلام لدى الآخر بغير العرب:_ صهيب الرومي _ بلال الحبشي _ سلمان الفارسي...

وهي مساواة في الوظائف الاجتماعية (توظيفا لهذا المفهوم في سياق بييربورديو)، حيث أصبح مفهوم التقوى مفاعلا جديدا يفضل على كل تلك القيم السيادية السابقة "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" و"لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى"..

ولكن تجدر الإشارة إلى مسألة ضرورية لا يفهم هذا المفهوم خارج سياقها، وهو أن مفهوم التقوى كمفهوم غيبي لا يلغي الواقعية الاجتماعية: بحيث لا يصير معه كل سلوك بشري إرجاء إلى يوم الحساب، بل إن الشرائع النصية تتولى فك كل النوازل_ والنوازل مصالحة مع الواقع وتواصل مع سياقه_ بقضاء عادل على الأرض أولا وتحقيقا للعدالة الإلهية في هذه الدنيا قبل الآخرة، وحتى لا يكون مفهوم التقوى تورية ضد العدالة الاجتماعية التي تقتضيها المساواة.

إن النموذج المدمر للبنية التقليدية/ القدسية والسيادة العرقية شكل نموذجا تدميريا حتى بالنسبة للحضارات المجاورة والمجايلة لأنها كانت أيضا تؤله الإنسان أو المادة:

_ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا

_ اتخذتم العجل

وفي الحالتين ضرب للعدالة الاجتماعية والمساواة: حيث إن استعباد الناس مناف للعدالة بظلم طبقة وجعلها في موقع الأسفل اجتماعيا واقتصاديا؛ ولا مساواة ولا تواصل مع هذا الوضع... واتخاذ المادة إلها استعباد للمالك لمن لا يملك، وظلم لمن لا يملك لأنه في طبقة دون المالك.

إن شروط الإمكان التي تبنتها الثقافات المجايلة للإسلام على مستوى الشكل لم تكن تتمتع بقوة المقاربة التي اقترحها الإسلام للوصول والتواصل مع أكبر عدد من الشرائح المقصية من خط التواصل والتبادل.

2 _ 1: اليهودية نموذجا يؤله المادة:

إن قصة البقرة التي طولب بنو إسرائيل بذبحها نموذج تاريخي خلده الإسلام لمفهوم تأليه المادة (المنافية للمساواة والعدالة الاجتماعية على النحو الذي تقدم). فذبح البقرة توظيف لسلطة الشكل؛ حيث أنها قتل لمفهوم الإله المادة لأنها أصل العجل الذهبي/ المعبود المادي الذي اختاره بنو إسرائيل بديلا لأنهم لم يستسيغوا أن يكون الإله غيبيا(غير مادي ملموس). لذلك تقدم سورة البقرة مفهوم الغيب في الآيات الأولى "هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة"

(فالغيب غير مادي والصلاة والزكاة من قبيل الغيب لأنهما مرتبطان بجزاء غيبي في الآخرة...)

فالسورة تقدم هذا المفهوم/الغيب في الآيات الأولى؛قبل الحديث عن قتل الإله المادي_ كمقابل للغيب _ في ذهن اليهود بذبح البقرة كجنس تبئره الذهنية اليهودية التي تعبد المادة والعجل الذهبي. وذبح البقرة بما هي أصل للعجل محو لمفهوم الألوهية المادية التي صاغها أصحابها من ذهب، لذلك تلاعبوا بأمر ذبح بقرة "نكرة" ورفضوا ذلك لأنهم يدركون معنى هذا الذبح المفاهيمي. فالتأكد من إسلام بوذي يعبد البقر مثلا ذبحه لمفهوم الإله في ثقافته القديمة ضمن ثقافة جديدة قد يكون فيها العجل أضحية. وليس اعتباطا أن يطلب ذبح بقرة من ثقافة تؤله المادة وتصوغ عجلا من ذهب إلها لها.

إن ثقافة تؤله المادة أو الإنسان لا يمكن أن توفر عدالة ولا مساواة خصوصا إذا كانت ثقافة عرقية مادامت العرقية اغتصابا للمساواة

2_2:مشروع المساواة والعدالة من الخطاب إلى السلوك

/سيميولوجيا الشكل ترجمة للخطاب:

إن البديل الإسلامي الذي لم يكن له منافس قيمي لم ينجح بتبني المساواة والعدالة الاجتماعية بشكل اعتباطي، حيث تبنى استراتيجيتين تواصليتين متلازمتين ومتعاضدتين: الخطاب والسلوك/ سلطة اللغة بما هي خطاب داع إلى هذه المفاهيم؛ وسلطة الشكل وهي موقع التحليل هنا بما هي ترجمة عملية لهذه المفاهيم. وذلك على عدة أصعدة تمس المعاملات والعبادات. ونختار منها مجال العبادات التي يمكن أن تكون أبعد عن مؤازرة هذا المشروع: المساواة والعدالة؛ بحكم طبيعتها

كعبادات. أما المعاملات فهي ترجمة صريحة للمشروع/ ومقاربتها مصادرة على المطلوب.

أ _ ***الصلاة:***

إذا كانت العبادات في الثقافات الأخرى تحتاج إلى وسائط بين الناس ومعبودهم: كيفما كانت هذه الوسائط: رجال دين، يتولون قراءة النصوص العليا ويملكون مفاتيح لغاتها التي قد تكون بائدة ولا يتعامل معها عامة الناس إلا كطلاسم يرددونها ويكتفون بالتأمين عند سماعها في الطقوس الدينية، إذا كان الأمر كذلك فإن مشروع المساواة المتجدد الذي تقدم به الإسلام يفتح الباب أمام "عامة الناس"؛ كيفما كانت هويتهم وعرقهم لأن يخاطبوا ربهم مباشرة،خلال كل يوم وحين (فكان ضمير المخاطَب إلزاميا دبر كل صلاة: إياك نعبد وإياك نستعين...): لأنها الضامن الوحيد لهذه المباشرة، والقرءان ككلٍ دلالةُ تجدد صريحة، لأن الأمة الوحيدة التي تملك هذا التواصل المباشر مع نصها الأصلي هي الأمة الإسلامية. والثقافات الأخرى تتعامل مع نصوص طلاسم لغاتها بائدة، مع كونها متنافرة ومتعددة/ أناجيل وأسفار...ولا توجد ثقافة تتعامل مباشرة مع نص أصلي واحد رغم اختلاف التأويل.[1]

إن هذه العبادة الإلزامية تربط الناس جميعا بفعل مساواتهم مع خالقهم، ولها شكل سيميولوجي يعبر عن هذه المساواة: فالناس كلهم :ملوكا وأناسا بسطاء يتوجهون نحو قبلة واحدة، متساوون في صفوف لاتحفظ التراتبية المجتمعية لأحد. وكل الناس فيها خاضعون بترجمة السجود لقوة إلهية واحدة تنسب العظمة للأكبر منذ

[1] إن اختلاف التأويل إغناء وانفتاح للنص، مقابل اختلاف النصوص وتضاربها الباعث على الشك والريبة والنفي.

تكبيرة الإحرام حتى السجود والانسحاب من حضرة الخالق بالخروج من الصلاة عبر السلام. لافرق بين ملك وعبد حبشي: إنها سيميولوجية تبئير المساواة والعدالة في الحق المشترك بين جميع الناس لمناجاة الخالق ومخاطبته دون تحوير أو تضليل واسطة تدعي الفضل على غيرها، في مقابل إيديولوجيات مضللة وديانات محرفة غيرت وجه الحقيقة فجعلت الدين عرقيا أو جعلت واسطة بين الخالق والمخلوق ضدا على المساواة والعدل الإلهيين.

ب _ ***الحج:***

مشهد المساواة والعدالةالاجتماعية بامتياز:

الحج عرفة: تقيد بزمان ومكان ولا يمكن لأي أمبراطور قبل الدخول إلى هذا الدين أن يحج في غير هذا المكان وخارج هذا الزمان تطبيقا للمساواة بين كل البشر.

والناس مهما كانت رتبهم ووظائفهم شبه عراة بلباس موحد هو الإحرام / كيوم الحشر والولادة الأولى التي تحيل إلى المساواة.

والحلق إهانة قصدية واختيارية هنا، وهي مرتبطة في جميع الثقافات بالسجن والإذلال والإجبار.

وفي أجواء كل هذا المحمول تحيلنا المناسك "خذوا عني ماسككم" إلى دلالة العدالة التي تصاحبها:

_ رد المظالم/ العدل

_ الحج من مال حلال/ العدل

_ المناسك / المساواة

_ الخطبة/ إحالة إلى خطبة الوداع / مساواة وعدل

نموذج لعلاقة الحاكم بالمحكوم: عرض لمشروع الحاكم أمام المحكوم: "من جلدت له ظهرا ظلما فها هو ظهري فليجلده". تفعيلا للسميولوجي باعتباره أداة للتواصل والتأثير[1]، وتأسيسا لميثاق حقوق الإنسان والمساواة والعدالة على مستوى سلطة الشكل المتصالح مع النص.

إن الثقافات التي تسيطر اليوم على هويات المغلوب لم تكن لتبلغ أهدافها دون استراتيجيات تواصلية تراعي المتلقي وتعرف لغته وتُفعل ميكانيزمات التأثير فيه.

[1] مع الأخذ بعين الاعتبار أن منتج النص يتموقع على رأس السلطة الحاكمة التي تكون للكلمة البسيطة الصادرة عنها دلالة رمزية، أليست الإشارة الرمزية من الرئيس أوباما بمخاطبة إيران في عيدها بلغتها وبنصها الفارسي خطابا دالا لموقع المخاطب وسلطته.